بِسْمِ اللَّهِ

سَئِمتُ وُجُوهَ أَشْباهِ الرِّجال

البحر: الوافر التام — عدد الأبيات: ٨٤

قال الفقير لعفو ربه الغنيّ/ أبو قُدامةَ المِصريّ «عفا الله عنه»:

سَئِمْتُ وُجُوهَ أَشْبَاهِ الرِّجَالِ ... ذَوِي الْفِعْلِ الْمُخَالِفِ لِلْمَقَالِ

أُولِي الْهِمَمِ الدَّفِينَةِ فِي الرِّمَالِ ... وَأَصْحَابِ التَّمَيُّزِ فِي الْجِدَالِ

إِذَا مَا قِيلَ: هَلْ فِيكُمْ مُوَالِ ... لِنَصْرِ الْحَقِّ فِي وَجْهِ الضَّلالِ؟

سَمِعْتَ نَشَازَ أَلْسِنَةٍ طِوَالِ ... تُعَاهِدُ بِالثَّبَاتِ عَلَى النِّضَالِ

فَإِنْ نَادَيْتَ: حَيَّ عَلَى الْفِعَالِ ... صُدِمْتَ بِالِاعْتِذَارِ وَالِاعْتِلالِ

فَهَٰذَا يَشْتَكِي بَعْضَ الْهُزَالِ ... وَذٰلِكَ يَسْتَغِيثُ مِنَ السُّعَالِ

وَذَاكَ يَفِرُّ مِنْ أَصْلِ السُّؤَالِ ... وَكُلٌّ يَنْكُثُونَ عَلَى التَّوَالِي

فَكُلٌّ غَارِقُونَ فِي الِانْشِغَالِ ... بِتَحْصِيلِ الْحَقِيرِ مِنَ الْفِضَالِ

مَعَ السَّعْيِ الْحَثِيثِ إِلَى الْقِتَالِ ... عَلَىٰ دُنْيَا تَؤُولُ إِلَىٰ زَوَالِ

وَمِنْهُمْ مَنْ تَعَمَّقَ فِي الضَّلالِ ... وَيَحْسَبُ أَنَّهُ فِي خَيْرِ حَالِ

وَيَلْبَسُ دَائِمًا ثَوْبَ الْمِثَالِي ... فَبِئْسَ ثِيَابُ زُورٍ وَاخْتِيَالِ

وَمِنْهُمْ مَنْ تَخَنَّثَ فِي الْفِعَالِ وَغَلَّظَ صَوْتَهُ مِثْلَ الرِّجَالِ
فَتَسْمَعُهُ يَصِيحُ عَلَى التَّوَالِي: أَنَا الْأَسَدُ الْجَسُورُ لَدَى النِّزَالِ
وَعِنْدَ الْجِدِّ يَهْرُبُ كَالْعِيَالِ وَيَتْرُكُ خَلْفَهُ خِزْيَ اللَّيَالِي
وَلَوْمَ النَّاسِ مُنْصَبًّا حِيَالِي: أَهَٰذَا الْفَسْلُ صَاحِبُكَ الْمِثَالِي؟!
فَأَدْفِنُ مِنْهُ رَأْسِي فِي الرِّمَالِ وَأَحْمِلُ مَا جَنَاهُ مِنَ الْوَبَالِ
وَمِنْهُمْ مَنْ تُقَلِّبُهُ اللَّيَالِي وتَمْسَخُ فِيهِ مِنْ حَالٍ لِحَالِ
يَبِيتُ مُمَيِّعًا يَشْكُو انْفِعَالِي وَيُصْبِحُ شَاهِرًا سَيْفَ الْمُغَالِي
وَيَكْسِرُ سَيْفَهُ قَبْلَ الزَّوَالِ وَبَعْدَ الْعَصْرِ يَرْجِعُ لِلْقِتَالِ
وَيُمْسِي فِي مَجَالِسِ الِاحْتِيَالِ يُجَامِلُ أَهْلَ زَيْغٍ وانْحِلالِ
وَبَعْدَ الْفَجْرِ يُهْرَعُ لِلْجِدَالِ وَيَهْرُبُ حِينَ يَعْجِزُ عَنْ سُؤَالِي
وَمَعْ إِدْمَانِ عَادَةِ الِابْتِدَالِ تَأَصَّلَ فِيهِ كَالدَّاءِ الْعُضَالِ
وَقَدْ نَاصَحْتُهُ حَتَّى الثُّمَالِ فَلَمْ يَهْتَمَّ أَوْ يَسْمَعْ مَقَالِي
وَظَلَّ يَدُورُ فِي ذَاكَ الْمَجَالِ مَعَ الْحَيْرَاتِ فِي بَحْرِ الْخَيَالِ
إِلَىٰ حَدِّ الْجُنُونِ وَالِاخْتِلالِ وَقَانَا اللّٰهُ مِنْ شَرِّ الضَّلَالِ

وَمِـنْـهُـمْ مَـنْ يُـرُوقُ لَـهُ جِـدَالِـي فَـيُـحْـدِثُ مَـا يُـثِـيرُ بِـهِ انْـفِـعَـالِـي
وَيَضْحَكُ إِنْ غَضِبْتُ وَلا يُبَالِي وَيَـفْـرَحُ إِنْ حَزِنْتُ وَسَاءَ حَالِي
وَيَـعْـمَـدُ لِلْـخِـصَـامِ بِالِافْـتِـعَـالِ لِـيَـقْـطَـعَ مَـا تَـبَـقَّـىٰ مِـنْ وِصَـالِـي
وَلَـٰـكِـنْ إِنْ يَـرُمْ بَـعْـضَ الـنَّـوَالِ وَيَـطْـمَـعْ فِـي انْـتِـفَـاعٍ مِـنْ خِـلالِـي
يَـعُـدْ مُـتَـوَدِّدًا دَمِثَ الْـخِـصَـالِ حَـرِيصًا أَنْ يَـكُـونَ عَـلَـى اتِّـصَـالِ
وَإِنْ تَـرَ مَـا يُـكِـنُّ وَمَـا نَـوَىٰ لِـي لَـثُـرْتَ عَـلَـيْـهِ ضَـرْبًا بِـالـنِّـعَـالِ
وَمِنْهُمْ مَنْ يُفَكِّرُ فِي اغْتِيَالِي بِـسَـيْـفِ الْـغِـلِّ أَوْ زَيْـفِ الْـمَـقَـالِ
فَـيَـمْـكُـرُ كَـيْ يُـشَـوِّهَ مَـا بَـقَـىٰ لِـي لَدَى الْأَبْـرَارِ مِنْ حُسْنِ الْخِصَالِ
وَيَـخْـنِـسُ كَـيْ يُـدَبِّـرَ فِـي الـلَّـيَـالِـي مَـكَـائِـدَ ، ثُـمَّ يَـظْـهَـرُ كَـالْـمُـوَالِـي
خَـبِـيرٌ فِـي طَـرَائِـقِ الِاحْـتِـيَـالِ ضَـلِـيعٌ فِـي الْـخِـيَـانَـةِ وَالـضَّـلَالِ
دَقِـيـقٌ يَـعْـرِفُ الْـوَقْـتَ الْـمِـثَـالِـي وَلا يَـدَعُ الْـمَـجَـالَ لِلِاحْـتِـمَـالِ
فَـيَـغْـدِرُ حِـينَ يَـغْـدِرُ لا يُـبَـالِـي وَيَـمْـضِـي لا يَـخَـافُ مِـنَ الْـمَـآلِ
سَـئِـمْـتُ مَـلَـلْـتُ مِـنْ تِـلْـكَ الْـفِـعَـالِ وَمِـنْ أَهْـلِ الْـخِـدَاعِ والِانْـتِـحَـالِ
عَـقَـارِب قَـد تَـوَارَتْ فِـي الـرِّمَـالِ لِـكَـيْ تَـنْـقَـضَّ بِـالـسُّـمِّ الْـعُـضَـالِ
أَفَـاعٍ يَـرْقُـصُـونَ عَـلَـى الْـحِـبَـالِ قَـدِ احْـتَـرَفُـوا الـتَّـلَـوُّنَ كَـالـسَّـحَـالِـي

فَأَشْكَالٌ كَأَشْكَالِ الرِّجَالِ وَأَفْعَالٌ كَأَفْعَالِ الْعِيَالِ
وَأَجْسَامٌ كَأَجْسَامِ الْبِغَالِ وَأَحْلامٌ كَأَحْلامِ النِّمَالِ
فَكُفُّوا يَا أُولَئِكَ عَنْ وِصَالِي فَلَسْتُ مُحَبِّذًا خُلُقَ الثَّعَالِي
كَفَانِي مَا أُذِقْتُ مِنَ الْوَبَالِ لَقَدْ أَعْلَنْتُ لِلْفِتَنِ اعْتِزَالِي
مَعَ التَّفْكِيرِ فِي شَدِّ الرِّحَالِ إِلَىٰ أَقْصَى الْبِقَاعِ بِلا اتِّصَالِ
عَلَىٰ تَلٍّ مِنَ الْأَضْغَانِ خَالِ لِأَنْسَىٰ كُلَّ أَيَّامِي الْخَوَالِي
وَأَحْيَا رَاعِيًا فِيمَا بَقَىٰ لِي غُنَيْمَاتٍ عَلَىٰ شَعَفِ الْجِبَالِ
وَحَسْبِي أَنَّ ذَلِكَ خَيْرَ مَالِ كَمَا ذَكَرَ النَّبِيُّ ، ولا أُغَالِي
وَلَسْتُ مُزَكِّيًّا نَفْسِي وَحَالِي وَلَسْتُ بِزَاعِمٍ أَنِّي الْمِثَالِي
فَذَاكَ الْفَرْضُ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِي وَلَمْ يَجْرُؤْ لِيَعْبُرَ فِي خَيَالِي
مَعَ التَّقْصِيرِ فِي طَلَبِ الْمَعَالِي وَمَنْ مِنَّا مِنَ التَّقْصِيرِ خَالِ؟
وَلَٰكِنِّي صُدِمْتُ بِمَا جَرَىٰ لِي وَأَفْجَعَنِي مَدَىٰ غَدْرِ الْمَوَالِي
وَخِسَّةُ مَا رَأَيْتُ مِنَ الْخِصَالِ لِقَوْمٍ خِلْتُهُمْ خَيْرَ الرِّجَالِ
وَكَانُوا لِي كَظِلٍّ مِنْ ظِلالِي دَوَامًا حَالَ حِلِّي وَارْتِحَالِي
تَرَاهُمْ بَيْنَ مُسْتَمِعٍ وَتَالِ ومُنْتَفِعٍ يُجَابُ عَنِ السُّؤَالِ

كَمَا شَهِدُوا بِأَنْفُسِهِمْ حِيَالِي بِأَنِي لَسْتُ مِنْ أَهْلِ التَّعَالِي
وَقَدْ عَلِمُوا بِأَنِّي لا أُبَالِي بِمَدْحٍ مِنْ شُيُوخٍ أَوْ عِيَالِ
وَ أَنِّي لا أُعَادِي أَوْ أُوَالِي عَلَىٰ شَيْءٍ سِوَىٰ دِينِ الْكَمَالِ
فُطِرْتُ عَلَى الْوَفَاءِ بِكُلِّ حَالِ فَأَبْذُلُ لِلْأَحِبَّةِ كُلَّ غَالِ
وَأَفْدِيهِمْ بِنَفْسِي أَوْ بِمَالِي فَهَلْ يُجْزَى الْوَفِيُّ بِالِاغْتِيَالِ؟!
وَهَلْ يُرْمَى الْأَبِيُّ بِالِاخْتِيَالِ؟! وَهَلْ يُلْقَى الْحَيِيُّ بِالِابْتِذَالِ؟!
فَذَرْهُمْ يَفْتَرُونَ ، وَلا تُبَالِ فَقَدْ رُزِقُوا بِأَلْسِنَةٍ طِوَالِ
تُقَطِّعُ، ثُمَّ تُقْطَعُ فِي الْمَآلِ فَبَشِّرْ كُلَّ هَمَّازٍ مُغَالِ
سَيُلْقَى الْبُهْتُ فِي رَدَغِ الْخَبَالِ جَزَاءً لِلِّسَانِ الْمُسْتَطَالِ
فَسُبْحَانَ الْمُهَيْمِنِ ذِي الْجَلالِ يُجَازِي الْخَلْقَ مِنْ جِنْسِ الْفِعَالِ
وَإِنِّي إِذْ نَجَوْتُ مِنَ الضَّلالِ بِمَحْضِ الْفَضْلِ مِنْهُ بِلا جِدَالِ
سَأَبْقَىٰ فِي سُكُونِي وَانْعِزَالِي بَعِيدًا عَنْ مُمِيلٍ أَوْ مُمَالِ
فَجُلُّ النَّاسِ يَحْطِبُ فِي اللَّيَالِي وَيَمْلَأُ بِالْمَعَاصِي كُلَّ خَالِ
وَيَكْدَحُ فِي النَّهَارِ وَلا يُبَالِي أَيَكْسِبُ مِنْ حَرَامٍ أَمْ حَلالِ!
فَبِئْسَ الْآكِلُونَ بِالِاحْتِيَالِ عَبِيدٌ لِلدَّرَاهِمِ وَالرِّيَالِ

وَأَخْبَثُهُمْ تَزَوَّجَ ذَاتَ مَالِ ... لِيَسْلُبَهَا جَوَاهِرَهَا الْغَوَالِي
وَأَحْقَرُهُمْ تَطَلَّعَ لِلْعَوَالِي ... مِنَ الأَنْسَابِ بَاغِيَ الِاخْتِيَالِ
وَأَكْثَرُهُمْ يَمِيلُ إِلَى الْجَمَالِ ... وَكُلٌّ نَادِمٌ بَعْدَ الزَّوَالِ
وَذَاتُ الدِّينِ تَظْفَرُ بِانْشِغَالِي ... وَتَسْكُنُ حَيْثُ تَسْكُنُ فِي خَيَالِي
وَلَٰكِنْ صَدَّنِي عَنْهَا الْأَهَالِي ... وَعَشَّمَنِي أَبُوهَا بِالْمَقَالِ
فَقَالَ: أَرَاكَ مِنْ خَيْرِ الرِّجَالِ ... وَلَٰكِنْ لَسْتَ ذَا جَاهٍ وَمَالِ
وَتَعْرِفُ أَنَّ مَهْرَ الْبِنْتِ غَالِ ... فَأَقْصِرْ عَنْ رَجَائِكَ فِي عِيَالِي
فَقُلْتُ: اللّٰهُ حَسْبِي، لا أُبَالِي ... بِرَفْضِكَ إِنْ تُصِرَّ عَلَى التَّعَالِي
وَإِنْ حَلَّ الْبَلاءُ عَلَى التَّوَالِي ... فَإِنِّي قَدْ رَضِيتُ بِمَا قَضَىٰ لِي
وَأُوقِنُ أَنَّ رَبِّي فِي الْمَآلِ ... سَيَرْزُقُنِي بِمَنْ يَرْضَىٰ بِحَالِي
وَحَتَّىٰ يُصْلِحَ الرَّحْمَنُ بَالِي ... وَيَكْفِيَنِي مِنَ الرِّزْقِ الْحَلالِ
سَأَصْمُدُ صَابِرًا صَبْرَ الْجِمَالِ ... بِعَوْنِ اللّٰهِ رَبِّي ذِي الْجَلالِ
عَلَيْهِ تَوَكُّلِي، وَلَهُ امْتِثَالِي ... وَدَوْمًا حُسْنُ ظَنِّي رَأْسُ مَالِي
وَمَا لِي حِيلَةٌ إِلَّا ابْتِهَالِي ... فَسُبْحَانَ الْغَنِيِّ عَنِ السُّؤَالِ

ونظمها الفقير إلى عفو ربه الغني
خادم القرآن الكريم
أبو قدامة المصري
خالد بن عبد المعبود
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

تمت بحمد اللّٰه تعالىٰ
في النصف الثاني من شهر صفر عامَ ١٤٣٩ هـ
ثُم أَضَفتُ إليها بعض الأبيات يومَ السبت
التاسع عشر من شهر ربيعٍ الآخر من ذات العام